نظرات فى سورة الأنبياء

د. أبو زيد محمد أبو زيد جعفر
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

سورة الأنبياء: مكية فى قول الجميع وآياتها إثنتا عشرة ومائة وسميت بذلك: لذكر قصص الأنبياء فيها وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى(١).

وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت رسول الله وادياً ما فى ديار العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لاحاجة لى فى قطعتك، نزلت اليوم سورة أزهلتنا عن الدنيا، يريد هذه السورة»(٢).

هذه السورة كغيرها من السور المكية تهدف إلى إثبات عقيدة الإسلام فى نفوس المشركين، وتبين عاقبة الظالمين وتوضح أن أصل كل حى من الماء، وبينت المصير النهائى لكل نفس.

وذكرت قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفيها معانى سامية وعبر وعظات. لذلك وما يغيب عنا قمت على قدر المستطاع إلى تقسيمها إلى مجموعات محاولا فى كل مجموعة بيان معنى بعض المفردات ثم استخراج وإبراز بعض الأهداف والمقاصد على النحو الآتى:

---

(١) تفسير المراغى ج ١٧ ص ٣

(٢) فتح البيان صديق حسن خان ج ٦ ص ١٣٥ دار الفكر العربى.

المشركين والرد عليهم

اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون(١) مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون(٢) لاهيـــة قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(٣) قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم(٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بـــل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(٥) ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون(٦) وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون(٧) وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين(٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين(٩) لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون(١٠)

١ — تفتتح السورة الكريمة آياتها بالإخبار عن اقتراب وقت الساعة والناس فى غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة ، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم جهلا منهم بما يحصل فى هذا اليوم .

فافتتاح السورة يوقفنا على ما كان عليـــه المشركون ، مع أن ذلك يتناول الناس جميعا .

٢ — تذكر مايدل على غفلة وإعراض المشركين المعاصرين للنبى ﷺ خاصة مايأتيهم من ذكر وقرآن من ربهم محدث إلا استمعوه وهم لاهون لاعبون مستهزئون .

وفى هذا ذم لأولئك الكفار وزجر لغيرهم عن مثله(١) .

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٧ ص ٥

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذى يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها: جاء فى ترجمة الآمدى لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه .. ثم جاءه هذا الرجل .

وقد أصاب أرضا فقال له : إنى استقطعت من رسول الله — ﷺ — واديا فى العرب وقد أردت أن أقطع لك منها قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لاحاجة لى فى قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : «اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون» وهذا هو فرق مابين القلوب الحيـــة المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة(١) .

ثم أسروا النجوى ليطفئوا نور الله ، ويبطلوا به — رسالة رسول الله . لأنه من البشر ، وليس من الملائكة وهم بهذا الادعاء يظلمون أنفسهم . أفتأتون السحر ؟ ومحمد لم يأت إلا بالسحر فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ والحال أنكم تبصرون الأمور على حقيقتها .

٣ — كشف الحق سبحانه حقيقة أمرهم وأطلع رسوله على مانتاجوا به ، وأمره أن يقول لهم : ربى يعلم القول سواء كان فى السماء أم فى الأرض فإنه يعلم السر وأخفى ، وهو السميع لكل مايسمع العليم بطوايا النفوس وخطرات القلوب وفى هذا تهديد لهم ووعيد(٢) .

وأخبر عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه فتارة يجعلونه سحراً وتارة يجعلونه شعراً وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال: «انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا»(٣) .

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب المجلد الرابع ج ١٧ ص ٢٣٦٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٣

(٣) الآية ٤٨ من سورة الإسراء .

والأمارة التى يمكن أن يقبلوها من الرسول عليه الصلاة والسلام كدليل على صدقه فى الرسالة: أن يأتيهم بمعجزة بادية محسوسة، على نحو ماجاء بها موسى لفرعون وملئه، وعلى نحو ماجاء بها عيسى لبنى إسرائيل وغير هذين من الرسل السابقين.

وقد قال الله تعالى: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلى أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا (١).

ولقد كان سؤالهم هذا سؤال تعنت، ويعلم الله أنهم لايؤمنون ولو نزل عليهم ما طلبوا، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبـــلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (٢).

وبعد اقتراحهم لمجيء الآيات قال الله مجيبا لهم، ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون، أى إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا.

٤ — وتأخذ السورة فى الرد عليهم حين ينكرون بشرية الرسول ويكون ذلك سببا فى عدم تصديقهم برسالته وتثبت فى نفس الوقت أنه ليس هناك رسول أرسل إلى قومه قبل رسالة محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام إلا كان من البشر يختار من الله ويوحى إليه بالرسالة (٣).

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الإسراء.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١١.

(٣) تفسير سورة الأنبياء الدكتور محمد البهى ص ١١ الناشر مكتبة وهبـــة.

قال الله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (١) .

وقال تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين (٢) » .

وقال تعالى حكاية عن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك « فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد (٣) .

وقال سبحانه « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »(٤)

ثم توضح السورة وتبين أنهم إن كانوا فى شك من ذلك وفى حاجة إلى تأكيد الحقيقة فليسألوا أهل الذكر من اليهود والنصارى فهم لا ينكرون ذلك أبدا إن كنتم لا تعلمون ، وفى هـــذا تسجيل عليهم بالجهل وعدم المعرفة » (٥) .

٥ — أكد الحق سبحانه كون الرسل من جنس البشر فى سنن الطبيعة البشرية يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وفى الوقت الذى كان المكيون يرفضون فيه التصديق برسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لأنه بشر ، كانوا يأخذون عليه أنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق : « وقالوا مال هذا

---

(١) الآية ٤٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٣) بعض الآية ٦ من سورة التغابن .
(٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٥) التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازى المجلد الثانى ج١٧ ص٦

الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » (١) فترد الآية فى السورة هنا على مأخذهم هذا : بأن من لوازم البشرية ثلاثة أمور .

الأمر الأول : أكل الطعام ، والأمر الثانى : الحركة والمشى : والأمر الثالث : عدم الخلود فى الحياة على هذه الأرض ، فكون الرسول بشرا إذن لا يعيبه ولا ينقصه (٢) ، كما قال تعالى: « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا » (٣) .

٦ — صدق الله فى وعده فأنجى الرسل جميعا ومن شاء معهم من المؤمنين بهم ، وأهلك المكذبين بما جاءت به الرسل . ثم نبه سبحانه — على شرف القرآن — بمخاطبة قريش ولفت نظرهم إلى مافيه من مواعظ وزواجر ، وأحكام وأوامر أفلا تعقلون وتتدبرون أن القرآن كتاب توجيه وهداية ومن ثم هو بعيد عن كل ما يضل الإنسان أو يوقعه فى الزيغ والإنحراف قال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (٤) » أى فيه مايوجب الثناء عليكم لكونه بلسانكم نازلا بين أظهركم على لسان رسول منكم ، واشتهاره سبب لاشتهاركم .

---

(١) الآية ٧ من سورة الفرقان .

(٢) تفسير سورة الأنبياء للدكتور محمد البهى ص١٢ الناشر مكتبة وهبة .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

عاقبة المجتمعات التى عارضت رسلها

وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين (١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (١٢) لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون (١٣) قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين (١٤) فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين (١٥) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين (١٦) لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (١٧).

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون (١٨) وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢٠).

المفردات كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها القصم : هو الكسر الذى لا يكون بعده التئام والإحساس : الإدراك بالحاسة ، والبأس : الشدة والضيق، والركض : الفرار والهرب والانهزام ومنه ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله : « أركض برجلك (١) » ، والإترافة : إبطار النعمة يقال أترف فلان أى وسع عليه فى معاشه وقل فيه همه ، ياويلنا : أى يا هلاكنا ، دعواهم : أى دعوتهم التى يرددونها ، حصيدا : أى كالزرع المحصود بالمناجل ، خامدين : ميتين ، نقذف : نرمى ، فيدمغه : المراد يقهره ويهلكه ، وأصل الدمغ : شبح الرأس حتى يبلغ الدماغ ، زاهق : هالك وتالف ، يستحسرون : لا يعيون ولا يتعبون ، لا يفترون : لا يضعفون .

بعد أن بين سبحانه فى الآيات السابقة أن الساعة آتية لا محالة . وأنهم فى غفلة ومشتغلون باللهو واللعب ومهما أخفوا من شيء فلا يخفى على الله السميع العليم صاحب القدرة التى أهلكت المكذبين بالله، والعاصين لأوامره ونواهيه — بين هنا ما يأتى :

١ — هلاك كثير من المجتمعات الظالمة التى بغت بمالها وقوتها، وتعدى ظلمها الضعفاء فيها ، فكل قرية تكفر بالله وتكذب بآياته مصيرها الهلاك والإبادة .

قال ابن عباس : بعث الله نبياً من حمير يقال له شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا. فسار إليهم بختنصر فقاتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله « وكم قصمنا — إلى قوله — خامدين »(١) ،

كما قال : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا »(٢) .

وقال تعالى : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصـــير »(٣) ثم أتى الله بأمم أخرى تؤمن بالله وبرسله بعد هلاك المجتمعات الظالمة .

---

(١) فتح البيان تأليف صديق حسن خان ج٦ ص ١٤١
(٢) الآية ١٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآيات ٣٥ — ٤٨ من سورة الحج .

٢ — صور الحق سبحانه حركة القوم فى تلك القرى وبأس الله يأخذهم، ويحاولون الهروب من عذاب الله عندئذ. قيل لهم من الملائكة: لا تركضوا، وارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم، التى حملتكم على الظلم والكفر والغرور، والسرور لعلكم تسألون عما كنتم فيه من أداء شكر النعم — وأخذ القوم يكررون الاعتراف بظلمهم أنفسهم، ولكن لم ينفعهم ذلك، وأبيدوا كما يباد الحصيد، وخمدوا كما تخمد النار.

٣ — نبه سبحانه على أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما من العجائب للعب واللهو، بل خلقهما للتفكر والتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره، ثم نزه ذاته المقدسة عن سمات النقص وذلك بالرد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، أو على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قال تعالى: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار»(١).

٤ — بيان أثر الحق فى محو الباطل وإتلافه وهلاكه، ثم العذاب فى الآخرة للكفار بسبب وصفهم لله بما لا يجوز عليه من الصاحبة والولد، وبسبب كفرهم وعنادهم فى الكفر، برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام فهو سبحانه له من فى السموات والأرض، خلقاً وتصريفاً، ومن عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، ولا يضعفون ولا يتبعون.

---

(١) الآية ٤ من سورة الزمر.

بيان التوحيد ، ونفى الشريك

أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون(٢١) لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون(٢٢) لايسأل عما يفعل وهم يسألون(٢٣) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون(٢٤) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(٢٥) وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون(٢٦) لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون(٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون(٢٨) ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين(٢٩) .

المفردات :

ينشرون: النشر إحياء الموتى من قبورهم ، والحشر : سوقهم إلى أرض المحشر ، لفسدتا: أى لخرجتا عن نظامهما ، فسبحان الله: أى تنزيها عما وصفوه به هذا ما ذكر من معى: أى هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى، وذكر من قبلى: أى وموعظتهم وإرشادهم ، لا يسبقونه بالقول : أى لا يتقدمون فى قول ، مكرمون: أى مقربون عنده ، من خشيته: أى بسبب خوف عذابه، مشفقون : أى حذرون .

بعد أن بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن له من فى السموات والأرض خلقا وملكا وإيجاداً والكل يعبد الله ويوحده بين هنا ما يأتى :

١ — أشار سبحانه إلى ضعف وحقارة الآلهة التى اتخذوها من الأرض وأثبت أنها غير قادرة على الإيجاد والتصريف .

٢ — أثبت فساد تعدد الآلهة مع تنزيهه عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدا أو شريكا .

كقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »(١)

ثم أكد التنزيه بأنه هو الحاكم الذى لامعقب لحكمه ، وهو سائل خلقه عما يعملون .

كما قال : « فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون »(٢) وقال : « وهو يجير ولا يجار عليه »(٣) .

ثم أنكر — الحق سبحانه — مرة أخرى وجود آلهة أخرى مع توبيخهم على اعتقادهم الباطل وأمر نبيه ﷺ . أن يطلب من هؤلاء الذين يدعون الشرك فى الألوهية أن يأتوا بدليل من الكتب السماوية يدل على أن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، بل أكثرهم لا يعلمون فهم الجهلاء بأنفسهم وبما يدعون .

٣ — أكد — سبحانه — أنه ما أرسل رسولا إلى أمة من الأمم إلا وهو يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضا .

قال تعالى « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون »(٤) .

---

(١) الآية ٩١ من سورة المؤمنين .

(٢) الآية ٩٢، ٩٣ من سورة الحجر .

(٣) بعض آية ٨٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

وقال : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبـــدوا الله وأجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(١) .

ثم رد على فريق من المشركين قولهم ـ الملائكة بنات الله فهم ليسوا بنات الله ، بل عباد مكرمون ، مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية . لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون به وهو تعالى عليه محيط بهم فلا يخفى عليهم منـه خافية ، وهم لا يشفعون إلا لمن رضى عنه ، كقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » (٢) .

وقوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » (٣) ثم مع هذا كله هم من عذاب ربهم مشفقون وخائفون .

ومن أدعى منهم أنه إله من دون الله — جدلا — كان جزاؤهم جهنم فذلك جزاء الظالمين . وكل من قال ذلك

الأدلة الكونية على وجود القادر المختار

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون (٣٠) وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون (٣١) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون (٣٢) وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون (٣٣) »

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل
(٢) بعض آية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٣) بعض آية ١٠٩ من سورة طه

المفردات : الرتق : الضم والالتحام خلقة كان أو صنعة ، والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين ، الرواسى : الثوابت واحدها راسية ، وتميد: تتحرك وتضطرب ، والفجاج واحدها فج وهو شقه يكتنفها جبلان ، والسبل واحدها سبيل : وهـــو الطريق الواسع ، الفلك : مدار الشمس والقمر والنجوم .

بعد أن حكى فى الآيات السابقة مقالات المشركين على سبيل التوبيخ منزها ذاته عن اتخاذ الولد والشريك مبينا أساس دعوة الرسل وهو أنه لا إله إلا أنا فاعبدون بين هنا ما يأتى :

١ ــ الدلالة على قدرة الله وسلطانه العظيم وذلك بأن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ثم فتق سبحانه هذه من هذه فجعل السموات سبعا والأرض سبعا وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض وذلك كله دليل على وجـــود الصانع القادر على ما يشاء .

ففى كل شئ له آية تدل على أنه واحد

هـذا وذاك كان يجب أن يلفت نظر هؤلاء المشركين حتى يؤمنوا بالله وحده .

٢ ــ حفظ سبحانه الأرض من الاهتزاز والاضطراب بمن عليها فجعل فيها جبالا ثابتة لوزنها واستقرارها وجعل فيها طرقا واسعة ليصلح عليها السير والإنبات لعلكم تهتدو إلى الصانع المختار .

٣ ــ نظم سبحانه السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، وقال تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (١)

(١) الآية ٤٧ من سورة الذاريات

وقال : « والسماء وما بناها (١) وقال : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٢) ونحو الآية قوله : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه (٣) ومع ظهور الآيات الدالة على وجود الصانع وكمال قدرته لا يعتبرون بها .

٤ — ذكرهم بنعمة أخرى مما أنعم الله به عليهم وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا آية النهار والقمر آية الليل ليعلموا عدد الشهور والحساب، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء(٤) .

من مواقف المشركين مع النبى

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥) وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون (٣٦) خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون (٣٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠) ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (٤١) :

---

(١) سورة الشمس الآية ٥

(٢) سورة ق الآية ٦

(٣) بعض آية ٦٥ من سورة الحج .

(٤) تفسير المراغى جـ ١٧ صـ ٢٨

المفردات : الخلد : الخلود والبقاء ، الذوق : هنا الإدراك ، والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، ونبلوكم : أى نختبركم ، بالخير والشر : أى المحبوب والمكروه ، فتنة : أى ابتلاء ، هزوا : سخرية ، بغتة : فجأة ، فتبهتهم : فتغلبهم وتحيرهم ، فحاق : أحاط ودار .

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر فى الآيات السابقة يتضح من هذه الآيات ما يأتى :

١ — بيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ، بل خلقت للابتلاء والامتحان ، ولتكون وسيلة إلى الآخرة التى هى دار الخلود ، أخرج البيهقى وغيره عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبى ﷺ وقد مات فقبله ، وقال وانبياه واخيلاه واصفياه ، ثم تلا : وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد : الآية .

٢ — تقرير أن كل نفس لابد أن يدركها الموت وبيان أن الخلد ليس من صفات البشر والكل عائد إلى الله يوم البعث .

٣ — تسلية الرسول ﷺ ودعوته إلى عدم الاهتمام لما يلاقيه من سخرية المشركين واستهزائهم ، فهم يكفرون بالقرآن . وكفرهم بالقرآن أكثر شناعة من استهزائهم بك ، كما قال : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (١) » .

٤ — وضح الحق سبحانه — أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم لأنه تعالى يملى للظالم

---

(١) الآية ٥١ ، ٤٢ سورة الفرقان

حتى إذا أخذه لم يفلته ، سأريكم آياتى الدالة على القدرة وعلى صدق رسالة محمد ﷺ فلا تستعجلون .

٥ — أخبر سبحانه عن استعجال المشركين بوقوع العذاب بهم تكذيبا وجحودا وكفرا وعنادا بوعد الله والنبى والقرآن وكانوا يقولون : متى هذا الوعد ؟ إن كنتم صادقين أيها المؤمنون .

٦ — بيان جهل الكفار حين استعجالهم للعذاب ، لو يعلمون ماذا أعد لهم ربهم من البلاء حين تفلح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، فلا يجدون ناصرا ينصرهم لما أقاموا على كفرهم بربهم ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا العذاب . وسيأتيهم العذاب فجأة فى وقت لا يقدرون على رده ، ولا هم يؤخرون لتوبة واعتذار .

٧ — تسلية الرسول ﷺ لما يلاقيه من سخرية واستهزاء فقديما استهزءوا برسل الله قبلك فكان جزاؤهم من الله أن أحاط بهم العذاب من كل جانب وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ونجى الله رسله ومن معهم من المؤمنين ، وإن الله على نصرهم لقدير (١) .

لا راد لقضاء الله مع بيان عدله

« قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون (٤٢) أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون (٤٣) بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون (٤٤)

---

(١) التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازى المجلد الثانى ج ١٧ ص ١٦ .

قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون (٤٥ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين (٤٦) ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاوإن كان مثقال حبة خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (٤٧) .

المفردات : يكلؤكم : أى يحرسكم ويحفظكم ، من الرحمن أى من بأسه وعقابه الذى تستحقونه ، عن القرآن أو عن مواعظ الله أو عن معرفته ، من دوننا : أى من غيرنا ، يصحبون : أى يحفظون ويجارون من عذابنا ، طال عليهم العمر : أى أمتد بهم الزمان ، أنذركم : أى أخوفكم وأحذركم ، بالوحى : من الله أى بالقرآن لامن قبل نفسى ، إذا ماينذرون: أى يخوفون لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار (١) نفحة : أى قسط ونصيب ضئيل ، حبة الخردل : مثل فى الصغر ، حاسبين : أى عادين محصين .

بعد أن بين فى الآيات السابقة أن الكافرين لا يستطيعون أن يمنعوا العذاب عن أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم يتبين فى هذه الآيات ما يأتى :

١ — توجيه الأمر لرسول الله ﷺ بأن يسأل أولئك المستهزئين سؤال إفكار وتوبيخ على غفلتهم وإعراضهم عن ذكر الله ، من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أمور معايشكم من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟ (٢) فالحارس على كل نفس بالليل والنهار هو الله .

---

(١) فتح البيان صديق حسن خان ج ٦ ص ١٦٠

(٢) تفسير المراغى ج ١٨ ص ٣٦

٢ — أعاد الحق سبحانه عليهم السؤال فى صورة أخرى هل الأصنام التى يعبدونها من دون الله تستطيع أن تحميهم من عقاب الله ؟ كلا فهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم يصحبون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم (١) .

٣ — أخبر سبحانه أنه تفضل عليهم بالتمتع بالحياة الدنيا مع جهلهم وضلالهم ثم وعظهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المؤمنين . أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين قال تعالى : « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون(٢) فالكافرون هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون (٣) » .

٤ — أمر الله النبى ﷺ أن يقول لهم أن ما أخبركم به جاء به الوحى الصادق والقرآن ، وما أنذرتكم به من العذاب ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلى . ولكن هل يسمع الصم الدعاء ؟ إذا ما ينذرون إلا : أنه لن يسمع أولئك الذين ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة فقلوبهم مغلقة لا يدخلها خير أبداً : « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (٤)» .

٥ — بين سبحانه حسرة الكفار وندمهم حين يصيبهم نفحة قليلة من عذاب ربك ليقولن : ياويلنا ويا هلاكنا ، إنا كنا ظالمين . وفى هذا

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الرابع جـ١٧ صـ٢٣٨٠ بتصرف يسير

(٢) الآية ٢٧ سورة الأحقاف

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ١٨٠

(٤) بعض آية ٤٦ سورة الحج

إشارة إلى قوة عذاب ربك وشدته « إن بطش ربك لشديد (١) » ، وإن الإنسان المسكين لفى خسر وخسارة **إلا** الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

٦ — توضيح أن أعمال الناس فى الدنيا مهما خف وزنها أوصغر ، فإنها توزن وزنا عادلا . ولا يظلم ربك أحدا لأنه سبحانه صاحب الجزاء والميزان ، والحساب .

يتبع — للبحث بقية بالجزء الثانى

---

(١) الآية ١٢ سورة البروج